ليلــة وداع حبيبي

د. إلهام بن منصور ـ الجزائر

في ليلة ممطرة مظلمة، كان المطر غزيرا، والسماء مزينة بألوان البرق وأصوات الرعد الذي كان يعزف نغمات مختلفة، خرجت من غرفتي لأذهب للحمام مع العلم أنني ترددت كثيرا قبل الخروج من فراشي الدافئ، وبينما انا أمر في رواق البيت سمعت صوت أنين زوجي الذي يقضي نصف ليله يحضّر لإتمام مذكرة تخرجه لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الدقيقة وكأنه يناديني لمساعدته على الفرار من شخص ما أو شيء لم أدريه وقتها...

طرقت باب غرفة المكتب الذي ينزوي فيه لساعات طويلة من النهار والليل فإذا به يفتح لي الباب وهو لا يكاد الحديث بشفتيه المرتعشتين من البرد والخوف من أن أعرف بالمرض الذي ظل طويلا يخفيه عني والذي كان ينهش أوصاله لعدم رغبته بتألمي عليه، أو تحوّل الحب الأسطوري الذي جمعنا إلى شفقة قاتلة...كان حبيبي الغالي و زوجي الحنون ومنبع سعادتي يعاني من سرطان في الرأس أنهك جسمه ومسح ضحكته التي كانت تهز بصداها أرجاء بيتنا المملوء حبا و إحتراما طالما أردنا زرعه في فلذات أكبادنا التي كانت وتملأ أركان بيتنا الدافئ بالحنان والحب...ولكن أخيرا قرر مصارحتي بالفاجعة بأنه يموت وهو يرغب بأن يترك لأولاده ذكرى منه بأن والدهم فيي يوم من الأيام قدم لوطنه و للحياة ما هو راق من العلم والابداع لهذا كان حريصا على الاسراع في إتمام أطروحته...

كانت صدمتي كالصاعقة ..

مرت ساعات طويلة وأنا أوجه نظراتي بعيوني المملوءة دموعا دموية إلى أغلى ما ملكت في الحياة ...كان ينام على ركبتي و أنا أمسح على رأسه المتألم الصارخ وكأنني أحرسه من وحش الموت الذي طالما زاره لبرهة ليذكره بأنه قريب منه و أنا لا أدري،حتى ناداني فجأة:يا حبيبتي الغالية أنا أتألم،أنا أنهار،أنا أموت أبناؤنا أمانة عندك..كلمات صغيرة ولكن كان معناها وألمها فضيع وكأنها الخنجر الذي كان يضرب مكان الجرح النازف مرات ومرات دون توقّف...

حاولت تهدئته بأن العمر كلّه مازال أمامنا وأنّ هناك أيّاما جميلة حلوة بإنتظارنا يجب أن يتمسك بالحياة لنعيشها معا،ولكن في ذلك الوقت كان يرى ما لا أحد غيره يراه، إنّه الضّيف المكروه الذي يدخل بيوتنا وحياتنا دون إستأذان منّا ،إنه الموت..

سارعت لأخرج السّيّارة من القبو لأنقله للمستشفى ومن سوء الحظ كان البنزين قد نفذ منها دون أن أنتبه لذلك مع زحمة المشاكل التي كنا نتخبط فيها أنذاك من ضائقة مالية وتهديد المستأجر لنا بطردنا من المنزل إن لم نتمكن من سداد المبلغ المستحق علينا وتدهور عمل زوجي لقرب الشركة التي يعمل بها من الإفلاس، وعدم قدرته على تلبية حاجاتنا المتزايدة وشراء أدويته التي لم نكن نعلم بضرورتها، رفعت سماعة الهاتف وأنا أرتعش ولم أعرف حتى الآن كيف تذكرت وكيف دونت رقم عمّي القريب من بيتنا، انتظرت ثوان حتى ردّ عليّ بصوت منخفض وكان

نصفه نائم والآخر نصف مستيقظ: ألو من معي؟؟ فأجبته بأنني إبنة أخيه وأن زوجي يصارع الموت ولابد من مجيئه لأخذه للمستشفى لأن حالته سيئة جدّا.. لم يتردّد في المجيء.. ركبت مع عمّي وأنا أضع رأس وزجي الحبيب فوق ركبتي اللتان لم أكن أقدر على تثبيتهما من شدة إرتعاشهما، حاولت زوجة عمي التي أكن لها كل الحب والتقدير بأن تقنعني بمرافقتنا فرفضت بوطلبت منها البقاء مع أولادي الإثنين وأنني سأطمئنها بكل جديد، للحظة إنهمرت بالبكاء وكأنني أترجى الموت بـأن يعطف على حالي ويسمح لزوجي بالبقاء معي ومع أولاده اللذان لا زالا بأمس الحاجة له.. بقيت أعد الدقائق ولا أرتاح بأي مكان أجلس فيه أو أقف عنده في انتظار ما سيقوله الدكتور بشأن حال زوجي وروحي التي كنت أشعر وكأنها ستغادر جسدي المرتجف..

بعد نصف ساعة مرّت وكأنها نصف دهر خرج الطبيب الذي قد طلب بقاءه بالمشفى بضعة أيام حتى تستقر حالته.. غادرنا المشفى بسرعة لإحضار الفراش ومستلزماته الضرورية، وبينما نحن نحضر له الملابس والأغطية التي يحتاجها حتى رن هاتف عمّي عدة مرات ليرفع السماعة وهو يقول: هذه المكالمة من المستشفى ربما احتاجوا أمرا آخر يريدوننا اخذه له معنا وقبل أن ينهي كلامه حتى رأيته يسقط على الأرض وعيناه الذابلتان تذرف الكثير والكثير من الدموع الساخنة.

- عمّي ماذا حصل؟؟ما الذي اخبروك به يا عمي؟هل حال زوجي ساءت أكثر؟؟

رد عمي بصوت ضعيف :لقد توفي زوجك يا ابنتي..

كانت أسؤ وأقسى وأمرّ كلمات سمعتها في حياتي كلّها..صرخت بأعلى صوتي:لا لا هذا كذب زوجي لم يمت ولن يموت حبيبي سيظل معي ومع أولاده.. كانت كلمات حاولت بها تكذيب الأمر المشؤوم، وعلى صراخي إستيقظ ولداي ليصدموا بالخبر، للحظة إمتلأ البيت بالجيران والأقارب والأصدقاء...

أغمي عليّ لأجد نفسي في المستشفى وفرحت فرحا كله حزن و ألم لأنني سأتمكن من رأية زوجي لآخر مرة،ترجيت الممرضة لأخذي إليه مع العلم أنه لم يكن من المسموح لنا برأيته قبل إتمام إجراءات الخروج من المستشفى..وأخيرا أقنعتها أو ربما أشفقت على حالي الذي كان يبكي ألدّ الأعداء،دخلت غرفته التي كانت باردة برودته،كان نائما نوم الملاك الطاهر ،كان مبتسما وكأنه رأى عالمه الآخر الذي صنعه بطيبته في أثناء زيارته لهذا العالم الذي لم يرحب به طويلا حتى طلب منه الرحيل والمغادرة، قبلت يديه الساحرتين ثم جبينه العريض الأبيض الخالي من الدماء التي غادرته لانتهاء مهمتها، لم تتوقف دموعي عن السيلان وكان لا نهاية لها وكأنها تنحدر من بحر لا حدود له..أخبرته بأنني أحبه وسأبقى أحبه وسأتوقف عن حبه يوم يتوقف قلبي على النبض للحياة التي لم يعد لها أي طعم ولا لون ولا

ذوق بل صارت خالية مظلمة مخيفة...وعدته بأن أحافظ على حبنا وأن أصون اولادنا وأحافظ عليهم كما دوما حافظ هو علينا على الرغم من أنّ مكانه لن يملؤه أحد ولن يعوضه مخلوق على وجه الأرض،لقد طلبت منه آخر طلب و هو أن يرقد بسلام لحين رحيلي إليه.

كانت السماء تمطر باكية على فراقه وظل المطر يتهاطل حتى غطاه التراب ليهدأ بعدها ويطلع يوم جديد بدونه،بدون حبه ،بدون دفئه...

مرت سنوات حاولت خلالها الوفاء بوعدي لحبيبي،لقد تزوج ولداي الصغيران وأنجب كل منهما طفلا مع رفيقتا دربهما،أما أنا فمازلت على حب زوجي الغالي ولم أتزوج بعدها رغم إصرار كل من حولي على ذلك لكي لا أبقى وحيدة،و قررت بأن لا أتزوج بعده حتى أضع يدي التي لم يمسسها مخلوق بعده بيده عند رحيلي إليه،..رغم مرور السنوات ظللت ولازلت أزور حبيبي كل جمعة لأسرد له ما يحدث مع أولادنا و أحفادنا وما الذي يحصل في الحياة التي تركها وكأنني آمل أن يرد عليّ يوما ما و يخبرني ما الذي يحدث في عالمه الآخر هو الآخر...لن أتوقف على حبه وعلى زيارته و على الوفاء لروح الطاهرة التي عرفت معنى الحياة معها و عرفت معنى الحزن و الغربة و الوحدة بفراقه و لكن رغم كل هذا أحمد الله على أنه ترك لي رائحة لن تمحى و لن يذهب عطرها أبدا و هما ولداي الغاليان صورة أبيهما مجسدة فيهما..سأظل وفية محبة لحبيبي حتى أرحل اليه...أحبك زوجي الغالي غلاء نفسي علي.